

وعي التحرر ومرجعيات التكوين في كتابات الإبراهيمي

The Consciousness of Emancipation and the References of Formation
in the Writings of the Brahimi

د. مديحة بشير الشريف

جامعة أكلي محند أولحاج – البويرة (الجزائر)

m.bachircherif@univ-bouira.dz

تاريخ القبول: 2022/09/30

تاريخ الإرسال: 2022/09/03

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة الفكر التوعوي في كتابات الإبراهيمي وإسهاماته الإصلاحية في ترسيخ الثقافة الوطنية الجزائرية، والدفاع عن الهوية الوطنية في الفترة الاستعمارية وما بعدها، وبيان الأثر الفكري والثقافي والسياسي، الذي دعا إليه الإبراهيمي في نفوس الأجيال المعاصرة له، وقد ركز هذا البحث على صناعة الوعي التحرري لدى أبناء الوطن للدفاع عن مقومات الأمة الجزائرية، ورفع الظلم والاستعمار عن الوطن المسلوب، وبالتالي التحرر من قيود الاستعمار بكل أشكاله.

الكلمات المفتاحية: الوعي التحرري؛ الجزائر؛ الاستعمار؛ الإبراهيمي؛ الهوية الوطنية؛ خطاب التحرر.

Abstract :

This research aims to study the awareness thought in El Ibrahimy's writings and reformist contributions to the consolidation of Algerian national culture and the defense of identity during the colonial period and beyond, and to show the intellectual, cultural and political impact that El Ibrahimy called for in the hearts of his contemporary generations. This research focuses on creating libertarian awareness among the compatriots to defend the elements of the Algerian nation, lift injustice and destruction from the stolen homeland, and thus freedom from the restrictions of colonialism in all its forms.

Keywords: Libertarian consciousness, Algeria, colonialism; Brahimi, national identity, Emancipation discours.

تمهيد:

يعدّ الأدب بشقيه - الشعري والنثري - صورة صادقة لمعاناة الشعوب المستعبدة والمظلومة في شتى أنحاء العالم؛ فهو المقاوم لجميع مغالطات المحتل، ومحاولاته الدنيئة لطمس معالم الأمة، وذلك بالقضاء على الهوية والدين واللغة ... وغيرها من المقومات التي كانت عرضة للهدم والتشويه والإقصاء في الفترة الاستعمارية وما بعدها. والأديب ترجمان الشعوب والمجتمعات المهضومة تحت وطأة المستعمر يؤثث نصوصه برؤى وتصورات تسعى للتحرر واسترجاع الحرية المغتصبة بقلمه الذي لا ينضب، ومن الأقلام الأدبية التي تناولت الثورة المجيدة بالإشادة والتمجيد بروح وطنية معتزة ببلدها الجزائر نجد الشيخ البشير الإبراهيمي الذي عكف طيلة حياته محاربا بعلمه أطفى قوة آنذاك فكان الفانوس المضيء في عتمة الاستعمار لأبناء وطنه.

لقد عرف الشيخ بتفانيه في الدفاع عن وطنه بكل ما أوتي من قوة حتى آخر يوم في حياته، كما تميزت كتاباته بالوعي التحرري والعطاء المستمر والمثمر في عصره وحتى في عصرنا المعاصر. انطلاقا مما سبق يمكن أن نتساءل عن الجهود التي بذلها الإبراهيمي لانتزاع الحرية من المغتصب؟ وما هي الآليات التي وظفها للذود عن وطنه؟.

هذه الأسئلة وأخرى سنحاول الإجابة عنها من خلال هذا البحث الموسوم بـ "وعي التحرر ومرجعيات التكوين في كتابات الإبراهيمي".

يشكّل الاستعمار بكافة أشكاله أكبر عائق للتقدم والرقى في كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية والدينية، والمستعمر الفرنسي في الجزائر "لم يكتف باستغلال الأرض: ما فوقها وما تحتها واستعباد الإنسان وتسخيره في شتى الميادين ولكنّه تعدّى ذلك بأسلوبه الماكيافيالي إلى تشويه التاريخ وإفراغه من محتوياته الإيجابية وذلك ليتمكن من فصل المجتمع الجزائري عن قاعدته المتينة التي يركز عليها والمتمثلة في ثقافتنا الوطنية وما تشمل عليه من ثروات هائلة"⁽¹⁾، عمل المستعمر منذ دخوله إلى الجزائر على ضرب الهوية الوطنية للفرد الجزائري، وتدنيس تاريخه، وسلخه من أخلاقه، وعزله عن حضارته حتى يجرده من كل أسباب المقاومة ويبقيه تحت ريقته.

لقد ولد الشيخ البشير الإبراهيمي وقد مضى على احتلال الجزائر تسع وخمسون سنة أي في ظلّ نظام استعماري لا يعترف بأية حقوق للجزائريين، وكانت هذه الفترة كافية لإخضاع الشعب الجزائري عسكريا وسياسيا واقتصاديا، وهو ما جعل الشعب الجزائري مجبرا على محاربة الاستعمار الفرنسي، الذي هضم حقوق المجتمع بأكمله، ومارس عليه كل أصناف القمع والتعسف والاستبداد، وهي السياسة التي لم يتخل عنها إلى غاية إخراجها من البلاد سنة 1962م، بعد ثورة مسلحة دامت سبع سنوات ونصف.

كشف الإمام نية الفرنسيين وهي "أنهم يريدون تجريد الجزائريين من "وطنهم الفكري" كما سلبوهم "وطنهم الجغرافي" وكما يريدون سلبهم وتجريدهم من وطنهم الروحي"⁽²⁾، فعمل الإبراهيمي رفقة أعضاء الجمعية على كشف مخططات المستعمر الدنيئة ونشر الوعي والكفاح من أجل استعادة حق الجزائريين في تعلم دينهم ولغتهم وممارسة شعائرهم الدينية بكلّ حرية.

إنّ الحراك الفكري والثقافي والسياسي، الذي دعا إليه الإبراهيمي، يخصّ في العديد من مضامينه التحرر من قيود الاستعمار بكل أشكاله، ومنه فإنّ الاستقلال هو خطوة ضرورية، لكي يفكر العرب والمسلمون فيما ينبغي عليهم القيام به لاستعادة السيادة المسلوبة وقد لعبت كتابات مفكري النهضة دورا كبيرا في تعريف العقول على كيفية مواجهة استبداد الأنظمة الجائرة وتقليص القوانين التي تحدّ من حرية الإنسان وسعادته، وبات المثقفون الذين تذوقوا طعم الحرية من خلال إطلاعهم على مختلف الدراسات القديمة والحديثة، يؤكّدون أنّ الحياة في دولة الظلم والاستعباد، المفتقرة لبنود حقوق الإنسان، هي موت وهلاك، وأنّ الحرية التي يحميها قانون عادل تحقق العزة والكرامة كما أشاروا إلى أهمية التأمل بمعاني الحرية فألحوا إلى مكانتها في العالم المتمدن، مشيدين بالحرية التي كلما ازدادت دراسة وتفهما لواقع الحياة، ازدهر الوطن وتحسن حال المواطن"⁽³⁾ ولذلك وجه الإبراهيمي عنايته على غرار بقية العاملين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى نشر الوعي في كافة المجالات على نطاق واسع بين صفوف الجماهير الشعبية في الأرياف والمدن وتنمية المعرفة والثقافة بين أوساطهم لتنشأ أجيال واعية بواقعها مدركة للتحديات التي تنتظرها، فتعمل على طرد المحتل.

1/ صناعة الوعي التحرري في كتابات الإبراهيمي:

مرت الجزائر في الحقبة الاستعمارية على حملات شرسة كانت تدعو إلى إلحاقها بالأرض الفرنسية، ومنها من كانت تحاول طمس معالم الأمة بالقضاء على هويتها ودينها وضيق الخناق على العلماء والجمعيات. وفي ظل هذا الظلام الحالك برز نور جمعية العلماء المسلمين التي جمعت ثلة من العلماء المجتدين وهبوا أنفسهم لخدمة دينهم وأرضهم ومن أبرز هؤلاء العلماء الشيخ البشير الإبراهيمي الذي جاهد بالكلمة لرفع حجاب الجهل ودحض دجل المستدمر وأعوانه، وقد وصفه الفيلسوف "روجي غارودي" بأنه: "الشعلة التي بثت في الجزائر ثورتها الثقافية"⁽⁴⁾ فكان رفقة إخوانه مسخرا لسانه الصارم ومنطقه الحازم لمحاربة أعداء الأمة من المستدمرين وأعوانهم عن طريق خطبه ومحاضراته.

عكف الإبراهيمي طوال مسيرته التضالية على صناعة الرجال بدل التأليف والكتابة للدفاع عن مقومات الأمة الجزائرية، ورفع الظلم والاستعمار عن الوطن المسلوب فسعى إلى نصح الناس وإرشادهم نحو الطريق القويم وبث فيهم روح التحدي والاستماتة من أجل الوطن، رغم مساعي المستدمر الخبيثة لدحض كل مشروع تنويري من قبل رجال الأمة الصالحين، نجده يقول شاحذا هم الرجال بعد اندلاع الثورة مخافة من التردد والتذبذب "إن أقل القليل مما وقع على رؤوسكم من بلاء الاستعمار الفرنسي يوجب عليكم الثورة عليه من زمان بعيد، ولكنكم صبرتم، ورجوتم من الصخرة أن تلين، فطمعتم في الحال، وقد قمتم الآن قومة المسلم الحر الأبي فنعيدكم بالله وبالإسلام أن تتراجعوا أو تنكصوا على أعقابكم إن التراجع معناه الفناء الأبدي والذل السرمدى"⁽⁵⁾، فنلفيه يشجع قومه على الثورة فهي مرساة النجاة ويستفتح باندلاعها خيرا ويحذرهم من مغبة التراجع.

وبعد الإبراهيمي من السباقين الذين وقفوا مع الثورة رغم أنه كان خارج الوطن (القاهرة) عند تفجيرها إلى أنه كان حاضرا بروحه ووعيه التضالي "ونشر بتاريخ الثامن من شهر نوفمبر بيانا أعلن فيه عن تأييده للثورة"⁽⁶⁾ وهو ما يعكس وعي الرجل بأهمية الجهاد/ الثورة لانتزاع الحرية من مغتصبها وإيمانه بأن فرنسا لن تستجيب لمطامح الشعب بالسياسة والمهادنة.

لقد خبر الشيخ المحتك النوايا الحقيقية والحاقدة والمبيتة من قبل المستدمر لأبناء وطنه وأيقن منها أنه لا سبيل للحرية واسترداد الوطن إلاّ بالجهاد، فأخذ يشحذ الهمم ويوحد الكلمة والصف الوطني والعربي، يقول واصفا واقع فرنسا المزيف ووعودها الكاذبة بالحرية "إنّ شريعة فرنسا تأخذ البريء بذنب المجرم، وإنّها تنظر إليكم مسلمين أو ثائرين نظرة واحدة وهي أنّها عدو لكم وأنكم عدو لها. ووالله لو سألتموها ألف سنة، لما تغيرت نظرتها العدائية لكم، وهي بذلك مصممة على محوكم، ومحو دينكم وعروبيتكم، وجميع مقوماتكم"⁽⁷⁾ فالعود الزائفة التي قدمتها فرنسا للجزائريين جعلت من الشيخ يتأكد أنّها لن تعطيهم حقهم بل يجب عليهم أن يأخذوه عنوة بحد السيف فلا أمان للظالم المستبد ولا عهد للخائن؛ فنلفيه في هذه الأسطر يبعث الوعي الثوري باعتباره البديل الفعلي لاسترداد الوطن السليب فبدل انتظار حرية تعطى بالذل والهوان والسلم والاستسلام وجب أخذها بشرف وعزة عن طريق الجهاد، يضيف قائلاً: "إنكم مع فرنسا في موقف لا خيار فيه، ونهايته الموت، فاختاروا ميتة الشرف على حياة العبودية التي هي شر من الموت"⁽⁸⁾، من خلال هذا القول نستعرض موقف الإبراهيمي الثابت من الجهاد، وأيّ مفتاح الحرية ولا بديل للشعب الجزائري عنه، فإن كان من الموت بدّ، فالأولى لهم أن يموتوا بشرف.

2/ مصادر الوعي الثوري:

1-2/ الدين:

من المعلوم أنّ تكوين الإبراهيمي كان تكويناً دينياً، اتكأ عليه طوال مسيرة عطائه؛ فهو يؤثث خطبه ومحاضراته من معينه؛ فلسان حاله كان يستحضر ألفاظاً وآيات قرآنية أو أحاديث نبوية يدعم بها مواقفه التعليمية والإصلاحية، ومساغيه التحريرية يقول: "أيها الإخوة الأحرار: هلموا إلى الكفاح المسلح. إننا كلما ذكرنا ما فعلت فرنسا بالدين الإسلامي في الجزائر، وذكرنا فظائعها في معاملة المسلمين، لا شيء إلاّ لأنهم مسلمون كلما ذكرنا ذلك احتقرنا أنفسنا واحتقرنا المسلمين، وخجلنا من الله أن يرانا ويبراهم مقصرين في الجهاد لإعلاء كلمته، وكلما استعرضنا الواجبات وجدنا أوجبها وألزمها في أعناقنا، إنما هو الكفاح المسلح فهو الذي يسقط علينا الواجب، ويدفع عنا وعن ديننا العار، فسيروا على بركة الله، ويعونه وتوفقه إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل الواحد

إلى إحدى الحسينين: إما موت وراءه الجنة، وإما حياة وراءها العزة والكرامة"⁽⁹⁾ يدعو الإبراهيمي إلى الالتفاف حول الكفاح المسلح والانتصار للدين الذي طالته فرنسا تشويها وتزييفا بتكريسها ثقافة الخرافات والأساطير، وللوطن الذي عبثت بكرامته وأباحت حدوده واستهانت بشعبه خصوصا وأنّ للجهاد في ديننا مكانة عظيمة في الدنيا والآخرة.

إنّ الكفاح المسلح مطلب مشروع يستمد مشروعيته من الدين الإسلامي الذي دعا إلى إعلاء كلمة الحق ونصرة المظلوم، والمسلم الحقيقي يُقبل على الموت لأنّه يعلم أنّه ملاقيه لا محالة يقول: "ما كان للمسلم أن يخاف الموت، وهو يعلم أنها كتاب مؤجل، وما كان للمسلم أن ييخل بماله أو بهجته؛ في سبيل الله، والانتصار لدينه، وهو يعلم أنها قرينة إلى الله وما كان له أن يرضى الدنية في دينه، إذا رضيها في دينه"⁽¹⁰⁾ نجد الإبراهيمي يدعو أبناء وطنه إلى الإقبال على الشهادة انتصارا للدين والوطن.

استعان الإبراهيمي بالقرآن الكريم لشحذ همم الناس وإرشادهم إلى طريق العزة والسؤدد يقول: "أخلصوا بصائرکم في الله واذكروا دائما، وفي جميع أعمالکم، ما دعاکم إليه القرآن من الصبر في سبيل الحق، ومن بذل المهج والأموال في سبيل الدين، واذكروا قبل ذلك كله قول الله: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقول الله: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾"⁽¹¹⁾ إنّ السند الذي يتكئ الإبراهيمي عليه هو القرآن الكريم لما له من مهابة وحضور في الضمير الجزائري فوجدناه يستحضره لتحرير العقول والأجساد من رقة المستعمر شاحنا سواعدهم بآيات الجهاد ورابطا على قلوبهم بما حوته من تكفل بنصرة المظلوم على الظالم، والقليل على الكثير.

لقد حرصت جمعية العلماء المسلمين على الحفاظ على الإسلام واللغة العربية بل أكثر من ذلك فما "قامت هذه الجمعية إلا لإحياء الإسلام والعروبة والعربية التي صمم الاستعمار على محوها، وما نصرها الله في الجولات الأولى أضعف ما كانت، وأقوى ما كان خصومها، إلا لأنها نصرت دينه وأحيت لغة كتابه، وما اشتد الاستعمار في مقاومة هذه الجمعية إلى يومنا هذا إلا لعلمه بمقاصدها هذه، وأنها على النقيض من مقاصده"⁽¹²⁾ فكانت غايتها التمسك بالدين الإسلامي الذي شد عضدها وألهمها القوة والاستمرارية في وجه المستعمر.

لقد تناول الإبراهيمي القضية الوطنية على غرار قضايا الواقع العربي والإسلامي في عمومياته وجزيئاته بنظرة وفكر عالم الدين المصلح والمفكر الذي سعى في كل مرة إلى تفنيد ومحاججة كل النظريات والآراء التي يناقشها، وذلك باستخدام الحجج العقلية والدليل العلمي والاستنتاج المنطقي الخالي من العاطفة، والمشحون بالدقة والمنهجية العلمية، وهو ما يؤكد الوعي والعلم بشؤون الحياة والسياسة، وقد زواج الإبراهيمي بين النظريتين الدينية والسياسية وأثبت قدرته على الخوض في السياسة مفندا للحجج القائلة بأن الدين والسياسة ضدان لا يلتقيان.

وفي ختام هذه النقطة من ضروري الإشارة إلى أنّ يقين وإيمان الإمام البشير الإبراهيمي "بالجهاد وسيلة لتحرير الوطن من الاستعمار هو من إيمانه بربه الذي أنزل في كتابه الكريم ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ (البقرة: 246/216) وأنزل ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: 39) ومن اقتناعه بأنّ الفرنسيين لا يخضعون إلّا للقوة، حيث كتب سنة 1950 يخاطب الشعب الجزائري ويغرس في قلبه هذه الحقيقة "إن القوم -الفرنسيين- لا يدينون إلّا بالقوة، فاطلبها بأسبابها، وأتأها من أبوابها، وأقوى أسبابها العلم وأوسع أبوابها العمل، فخذوها بقوة تعش حميداً وتمت شهيداً"⁽¹³⁾ لقد فصح الإبراهيمي للعقول النيرة أن تتبنى طريق العلم والعمل معا لتحرر العقول والأجساد من العبودية التي طالت البلاد والعباد.

2-2/ تعطيل العمل بالدين الإسلامي:

لقد أرجع البشير الإبراهيمي تخلف الجزائريين عن الالتفاف حول الثورة في عامها الأول حتى من بعض قادة الجمعية لأسباب عديدة ومتشعبة صنفها إلى خمسة أسباب أساسية هي: "فساد علماء الدين وانحرافهم، تعطيل العمل بالدين الإسلامي، الحجر على الاجتهاد والنزوع إلى النقل والتقليد، فساد الأخلاق، ووهن العزائم، وأخيرا الاستعمار الروحي أو العقلي الذي يعني الغزو الثقافي الفكري"⁽¹⁴⁾ وتمثل هذه الأسباب مسحا شاملا للأوضاع الدينية والعلمية والتقليد، فساد الأخلاق ووهن العزائم، وأخيرا الاستعمار الروحي أو العقلي الذي وصفه أخطر من الاستعمار العسكري فذلك ظاهر للعلن، ولكن الأصعب منه ما بثه المستدمر من أفكار وخرافات رسخت في أذهان الشعب فأصبحت معتقدات ثابتة يصعب الفصل فيها وهذه الأمور إن "فشّت في أمة من الأمم نقضت بناءها ومزقت

وحدة أفرادها وبددت طاقاتها الكامنة"⁽¹⁵⁾، والمنقذ الوحيد في نظر الإبراهيمي هو إحياء الدين الإسلامي، والاهتداء بإرشاد القرآن الكريم، فلا سلاح للنهوض، بعد أن وصلوا إلى درجة كبيرة من الانحطاط والتخلف إلا ما يقومون باقتباسه من القرآن، فنكون بذلك قد زودناهم بسلاح لا يهزم، وحصانهم حصانة روحية أمام الدعايات المضللة، وحصانة مادية لا تهزم أمامها مهما كانت الجموع التي تواجهها.

2-3/ دجل المستدمر:

لقد أولى الشيخ البشير الإبراهيمي اهتماما بالغا بما سمّاه الدعايات المضللة التي تعني الغزو الثقافي والفكري الذي يعمل على تضليل المجتمعات الإنسانية والتمويه عليها وتزييف الحقائق، وعلى الجزائريين أن يحذروا من دجل المستدمر الذي لبس منذ دخوله إلى الوطن العديد من العباءات الإغرائية والتي وصفها أنها أخطر من الأساليب الترهيبية الظاهرة للعلن. ولقد واجه الإسلام في هذا الإطار، تحديات كبيرة منذ القرون الأولى لظهوره.

وإذا كان الإبراهيمي، قد عبر في الكثير من كتاباته عن حزنه وعميق أسفه على تخلي أبناء الأمة بما فيهم الجزائريين عن الإسلام كمنهج وأسلوب في الحياة، يقيهم شر كل النوائب والأحقاد المحيطة بهم من كل جانب فإنه أبدى بعض التفاؤل بقوله: إنّ الكثير من المؤشرات توحى بعودة ما سمّاه الوعي بالعودة إلى الشريعة السمحة واستنباط المسالك الفضيلة، والذخائر الماثورة في أكنافها لرفع حجب الذل والاستكانة.

2-3/ سياسة التجهيل والتفكير والاستغلال:

طبقت فرنسا منذ دخولها إلى الجزائر سياسة التجهيل والتفكير والاستغلال، وعبر عنها الجنرال بيجو بمقولته الشهيرة: "السيف والحراث والقلم" حيث قصد بالسيف القوة العسكرية التي تكون في يده فقط، ومحاربة أي نوع من المعارضة أو المقاومة الجزائرية، والحراث الاستيطان الزراعي أيّ تفكير الشعب، أمّا القلم فأشار من خلاله إلى ما ينبغي القيام به في المجال التعليمي والثقافي وهو: حرمان كل الفئات الاجتماعية الجزائرية من أية فرصة للتعليم والتثقيف - عدا بعض الاستثناءات - "من أجل ذلك جعل الإمام التعليم العربي شُغله الشاغل، وهمة الدائم وكان يعتبره قضية حياة، لا بقاء للشعب الجزائري إلاّ به"⁽¹⁶⁾، وبالرغم من أنّ فرص التعليم بالنسبة للجزائريين، كانت محدودة جدا، نظرا لأنّ التجهيل ونشر

الأمية، كانا إحدى دعائم السياسة الفرنسية في البلاد "ففي كنف السلطة الاستعمارية، من اليسير أن يفتح مقهى، بشرط أن يلتزم صاحبه بإعداده ليكون مكانا لممارسة كل الرذائل في حين يعدّ ضربا من المستحيل الحصول على رخصة لفتح مدرسة"⁽¹⁷⁾ وهذا ما جعل من رجال العلماء المسلمين يتحركون لإرساء المدارس العربية لمحاربة الفرنسية.

إلا أنّ الإبراهيمي عمل على التصدي لسياسات التفجير والتجهيل، وزرع الأمية والتمهيش، بين صفوف الجماهير دون استثناء، وللآفات والأمراض الاجتماعية، التي كانت تنخر المجتمع، كنتيجة منطقية للسياسة المنتهجة من قبل المستعمر، وفضلا عن ذلك دافع بنفس الإرادة والعزيمة، عن قضايا المغرب والمشرق العربيين والعالم الإسلامي، وحتى بعض القضايا الإنسانية، التي لا تعني العرب والمسلمين بأي شكل من الأشكال.

لقد دفعت هذه الظروف، بفئة هامة من الجزائريين، إلى الهجرة خارج البلاد نحو الأقطار العربية والإسلامية خاصة ونحو فرنسا وأوروبا عامة "وقد كان لهذه الهجرة الأثر الطيب على المستويين الفكري والسياسي في الجزائر، إذ أدت إلى الإسراع في خلق وعي سياسي وثقافي وتطور فكري، ظهرت ثمارها الأولى بعد الحرب العالمية الأولى، من خلال النضال السياسي، الذي تبلور في شكل حركات سياسية وإصلاحية" وقد كشف الإبراهيمي سواء كان خارج الديار أو داخلها عن كفاءة كبيرة، في التوفيق بين النضال الوطني والقومي والقضية الوطنية الجزائرية التي كانت على رأس الأولويات، بحكم الوضع الجزائري الخاص الذي ربما كان الأكثر سوءا وتأزما من أي بلد عربي أو إسلامي آخر، لم تشكل عقبة بالنسبة إليه، لتكريس جزء من جهوده وأوقاته، للتمعن في الإشكالات والقضايا والتحديات التي كانت تحياها الأمة العربية الإسلامية في ذلك العصر، ليس لأنه كان يرغب في أن يكون له حضور سياسي وفكري في أكثر من مستوى وصعيد، وإنما انطلاقا من رؤيته الخاصة؛ التي تتمحور حول فكرة أنّ النضال الوطني هو جزء من النضال القومي، فمعالجة الجهل والامية في الجزائر سبيل لا غنى عنه لتحريرها من الهيمنة الاستعمارية، وفي نفس الوقت فهو خطوة أساسية لمعالجة ظاهرة التخلف، وتحقيق النهضة الشاملة المنشودة، ليس في الجزائر وحدها، وإنما في كل الأقطار العربية والإسلامية، التي تشترك معها في الأوضاع ذاتها.

في الأخير إنّ من مقاصد الجمعية وأهدافها ما ذكره الشيخ البشير الإبراهيمي إذ كانت "تشنع على الاستعمار وتقيم الحجج الدامغة على أنه عدو الإسلام، عدو العربية عدو العلم. وفي ظل هذا التشنيع الذي تنشره، وتحت النقع الذي تثيره على الاستعمار -متظلمة مستعدية صارخة بالحجج مهددة بإثارة المسلمين- تعمل جمعية العلماء أعمالها المدهشة في بناء العقول وفي بناء المدارس، وفي إثارة الأفكار"⁽¹⁸⁾ إنّ جرائم المستدمر الفرنسي في الجزائر، سواء تلك التي ارتكبها الجيش ضد الأبرياء العزل، أو تلك التي تجسدت في تجهيل المجتمع أو إفساد أخلاقه هي الامتحان الحقيقي الذي كشف زيف تلك الحضارة وجردتها من الخاصية الإنسانية، هذا ما جعل جمعية العلماء يتحدثون عن هذا الموضوع بالشرح والتحليل مع تضمين أحكامهم بأدلة ملموسة من الواقع الجزائري ويسارعون في اتخاذ التدابير والإجراءات اللازمة لتغيير الواقع وذلك ببناء العقول عن طريق العلم.

خاتمة

- من خلال ما سبق عرضه وشرحه، في هذه الدراسة يمكن استخلاص النتائج التالية:
- يبدو من خلال هذه الدراسة أنّ البيئة السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية والدينية، التي شب فيها الشيخ البشير الإبراهيمي، قد كان لها تأثير جوهري، في بلورة مواقفه الفكرية والسياسية من قضايا عصره عامة والعربية الإسلامية خاصة، وهي ميزة لا تقتصر عليه فحسب، بل شملت معظم رجال الفكر والإصلاح العرب والمسلمين.
- المشروع النهضة الذي نادى به الإبراهيمي يقوم على الصبغة الدينية المحضة، لأنّه يرى أنّ الدين الإسلامي هو المحرك الأساسي لكلّ مناحي الحياة العربية والإسلامية.
- الإبراهيمي كاتب تبني أفكار تحرير الشعوب العربية من الاستعمار، وتحرير العقول من الجهل والخرافات.
- أدّت الحركة الإصلاحية في الجزائر دورا هاما في المحافظة على اللغة العربية مقابل اللغة الفرنسية، فقام رواد الحركة بعدة أعمال من شأنها الحفاظ على هوية الجزائر.
- لم يكن دور الإبراهيمي مقصورا على مسألة اللغة والدين والهوية بل تعدّى هذه الأمور إلى الإصلاح الاجتماعي؛ فتناول قضايا الشباب من جهالة وتفرنس.

- أبي الشيخ الإبراهيمي أن تبقى الجزائر بعد استقلالها على ما هي عليه من الفقر والجوع والجهل فناضل من أجل إلغاء الطبقة وتحقيق العدالة الاجتماعية.

لقد ناضل الشيخ البشير الإبراهيمي على أكثر من صعيد ففي الجزائر كافح من أجل استعادة حق الجزائريين، في تعلم دينهم ولغتهم، وممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية كما دافع بنفس الإرادة والعزيمة، عن قضايا المغرب والمشرق وعن بعض القضايا الإنسانية.

الهوامش والإحالات

- (1) - محمد العربي الزيري: الثورة الجزائرية في عامها الأول، الجزائر/قسنطينة، ط1، 1984م، ص11.
- (2) - الإمام محمد البشير الإبراهيمي: جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م، ج3، ص23.
- (3) - ينظر: منذر معالي: معالم الفكر العربي في عصر النهضة، تقديم ياسين الأيوبي، دار اقرأ، بيروت، د ط، د ت، ص195/196.
- (4) - روجي غارودي: الإبراهيمي العالم المحدد: مقال ضمن كتاب الشيخ البشير الإبراهيمي بأقلام معاصرة، دار الأمة، الجزائر، ط2، 2007، ص140.
- (5) - الإمام محمد البشير الإبراهيمي: جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ج5، ص35.
- (6) - محمد العربي الزيري: الثورة الجزائرية في عامها الأول، ص186.
- (7) - الإمام محمد البشير الإبراهيمي: جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، ج5، ص35.
- (8) - المصدر نفسه: ج5، ص35.
- (9) - المصدر نفسه: ج5، ص36.
- (10) - المصدر نفسه: ج5، ص36.
- (11) - المصدر نفسه: ج5، ص36.
- (12) - المصدر نفسه: ج5، ص151.
- (13) - المصدر نفسه: ج5، ص17.
- (14) - المصدر نفسه: ج4، ص213.
- (15) - جمال الدين الأفغاني: محمد عبدة، العروة الوثقى، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1977، ص100.
- (16) - المصدر نفسه: ج3، ص27.
- (17) - مالك بن نبي: في مهب المعركة، دار الفكر، الجزائر، ط1، 1991، ص51.
- (18) - محمد البشير الإبراهيمي: جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، عيون البصائر، ج5، ص151.